نايات في عرس الدم البابلي

. محمد علاء الدين عبد المولى .

ناي عراقيٌّ...
فراتٌ من شقوق النّاي يجري ظامئًا
ووراءَه الأطفالُ في مهد النّخيلِ
وفوقَهم طارتْ حماماتٌ يَعُدْنَ مع الغروبِ
إلى احتمالات الحروبِ.
نايٌ...
تقاسيمُ الحجازِ تضيءُ إكليلاً لبابلَ
عندما تمضي إلى عرس الأيائلْ.
تعدو على أشلائها
وتدقّ في لوح الوصايا
مسمارَ صرختها الأخيرَ
وتختفي بين الضّحايا...
اتركي أحداقهنَّ مشرّعاتٍ للهواءِ
دعي المساءَ بقيّةً من لقمةٍ سوداءَ...
بابلُ: سحرُكِ العُلْويُّ عُلّقَ من حدائقه الّتي
تجري وراءَ كواكبٍ تهوي كأنهار السّنابلْ
وتغيبُ في أرض القلوبِ.
نايٌ...
صَبا صبٌّ شآميٌّ
تنفّس من مقام الياسمينِ صباحَهُ المغلوبَ،
كان النّايُ في شفتين بغداديَّتَيْن
قمرًا نحيلاً مستهامًا بالشّجى
يبكي على رأس الحسيْن.

❖ ❖

نايٌ عراقيٌّ بلا شفةٍ ينوحُ
مستغرقًا في وحشة عربيّةٍ
ريحٌ تحيطُ فضاءَهُ وتحلُّ في رؤياه ريحُ...
نايٌ: دليلُ فناءِ عاشقةٍ تذيبُ روايةَ التّفّاحِ
في سَرْدٍ بدائيٍّ... تصيحُ:
كلُّ الذين كتبتُهم في معجم الأسحارِ
دقّوا للرّدى مهباجَ قهوتهم
وشقّوا مخملَ الأحلامِ..
ما أعلى ظلالَهُمُ الهزيلةَ
ما أشفَّ جلودَهُمْ يقتاتُ
من أعضائهم نملٌ جريحُ.
نايٌ بلا لغةٍ، فصيحُ
نايٌ يعيدُ صدى العويلِ إلى مغنّي الكارثَهْ
ليقول ما في الفجرِ من إرثٍ ستُحْرقُه
البلادُ الوارثَهْ.

❖ ❖

ليلاً / يشيّع مسرحٌ جمهورَهُ
ليمرَّ وقتٌ للخرابْ
من باب هولاكو. ووقتٌ مضمر للنّاي...
نايٌ فوق ليل النّار
ماذا يفعلُ النّايُ الضّئيلُ
أمام ألغازِ الذّبائحِ؟
أيُّ سوريالّيةٍ عبثيّةٍ، كونيّةٍ / عربيّةٍ
تعطي المسمّى اسمَهُ
وتضيء للمعنى فضاءً لا يقولْ؟
مَنْ نام حتّى توقظوهُ؟
ومَنْ صحا ويداهُ غادرتاه يسقُط فيهما المجهولُ؟
هل لعبَ الصّغارُ مع الرّغيفِ قُبَيْلَ موتهمُ؟
لماذا تَفْقدُ الجثثُ الكلامْ؟
النّايُ قاموسٌ يجادلُ أبجديّاتِ الفراتِ
تطيرُ من حجرٍ إلى حجرٍ
كأسرابِ الحَمَامْ

ولها مكانٌ في الزّمانِ، لها زمانٌ في المكانِ،
لها الحديثُ، لها القديمْ
والنّايُ أضْعَفُ من يد اللّبن اليتيمْ
النّايُ إيقاعُ الضّياعْ
النّايُ خيمةُ أمّةٍ فَقَدَتْ أمومتَها
وأربى في بيادرها الهشيمْ.

❖ ❖

في اللّيل يَصْحو الموتُ في الشّرفاتِ
ذاهبةً إلى وادي الجماجم والمعادنْ
أمٌّ ترمّمُ دارَها بغبارها
لتقول: مَنْ يأتي إليها فهْو آمِنْ.
والذّعرُ أحداقٌ مجوّفةٌ
وأرجلُ لحظةٍ مقطوعةٌ
وعمارةٌ حَمَلَ الرّضيعُ جدارَها الباقي
وغطّى جدّه بوريده المقطوعِ،
قهقهةُ الجحيمِ
خرائبُ الجنّات تجري تحتَها أنهارُ فجرٍ زخرفتْهُ
ـ رغم نوم الربِّ ـ جمهرةُ المآذنْ.
قيلَ افتحي يا أرضُ مقبرةً وضيعي
فاليومَ أُغلقَتِ البحارُ على السّفائنْ،
واليومَ أنهى المنشدُ البحّارُ
رقصتَهُ على ظَهْرِ السّفينةِ
ثمّ حزَّ وريدَهُ ليسيلَ بين دمائه طابورُ قتلى
من نينوى يمتدّ حتى فجر جمهوريّةٍ
تهوي على جسرٍ هوى،
طابورُ قتلى
سَرقوا شواهدَ قبرهم ليزيّنوا تمثال حريّاتهم
ليصيرَ أعلى.

❖ ❖

نايٌ شهدتُ ثقوبَهُ اتّسعَتْ
لتعْبر كلَّ حينٍ جثّةٌ...
ما أكثرَ الشُّهداءَ
يبتكرونَ جنّتَهم بمفردهم على مَهلٍ.
دعوهم نائمينْ
لا توقظوهم بعدَ نصفِ اللّيلِ
فالأمطارُ نازفةٌ
وهذا القصفُ لم يهدأْ،
فقد يستشهدون الآن ثانيةً... دعوهُمْ نائمينْ.
يَمْضون في عتباتِ حلْمٍ لا يجوعُ
ولا تضيعُ على مداخله صلاةُ العاشقينْ.

❖ ❖

نايٌ بآلاف الثّقوبِ
نايٌ على شفة اللّهيبِ
يدعو النّخيلَ إلى مضاعفة التّمورِ
ليأخذ الأمواتُ حصّتَهُمْ
ويغتسلوا مع الأموات في جُرْنِ الغروبِ
ممّا ترسّب فوق جلدهمُ المجعّدِ من حروبِ.
نايٌ يسافرُ في مخيّلةٍ تودّعُ نفسَها
إنْ لمْ تجدْ أفقًا...
توزّع حنطةً وحليبَ موسيقى
على بيتٍ يشيلُ الوالدان رمادَهُ
ويقسّمان هواءَهُ بين العصافيرِ الصّغيرَهْ.
نايٌ... وتشهَقُ بالدّخان رئاتُ مملكةٍ
تنامُ وتنحني أشباحُها
في حضرة التّاجِ المرصّعِ بالضّحايا،
ينتشي سفّاحُها
بمشاهد الأطفال يَنْفرُ عظْمُهُمْ من جلدهم
ويجمّعون رفاقَهُمْ

كي يدخلوا سرًّا توابيتًا فقيرَهْ.
نايٌ عراقيٌّ رمى سجّادةً
للواقفينَ بسجدةِ الموتِ الأخيرَهْ.

❖ ❖

هل هَرَّبَ «السيَّابُ» أشجارَ النَّخيلِ
وراء أسوار الفراتْ؟
أم أشعلَ «النَّوَّابُ» كفَّيهْ ليبصرَ ما تبقَّى
من أصابع حلمه المستوحشاتْ؟
و«جواهريُّ» الحزنِ زركشَ موتَهُ بخيوطِ منفاهُ،
وغطَّى جثّة الرُّؤيا بنهر الشَّامِ
شدَّ على الضُّلوعِ سلالةً أُخرى
تبشِّرُ في المدى
بطفولةٍ سُرِقَتْ
وما عثَرَتْ عليها السّاحراتْ.
والأرضُ تَخْرجُ ضدَّ طين الأرض
والأشجارُ ضدَّ الرِّيحِ
والأطفالُ ضدَّ الحلمِ
والتّاريخُ ضدَّ العَرْشِ
والأمواتُ ضدَّ النَّعشِ
بابلُ ضدَّ خَمْرتِها
مسارحُ ضدَّ جمهورٍ
يطهِّر اثمَهُ بملاعبِ القتلى
ترابٌ ضدّ نسيانٍ
وماضٍ ضدّ حاضرِهِ
ويَخْرجُ من جواربه زمانٌ منتنٌ
ويلفّ قامات الثَّواني بالرَّماد...
يهبُّ من كلِّ الجهاتْ
من أيّ مهزومٍ أتى فتحٌ مبينٌ؟

كلَّما انكسرَ العبادُ
أقامَ قوسَ النَّصر سادتُنا الطُّغاةْ؟
يا ربّ لا... لا ترتفعْ أعلى، فثمّةَ نجمةٌ ملغومةٌ
والغيمُ ملغومٌ
وملغومٌ خيالُ المنشدينْ.
يا حقُّ أبطَلْتَ الحصادَ،
فقأْتَ باصرةَ الجنينْ،
ومزجْتَ في مهدٍ عجيبٍ
لحمَ ذاكرةٍ بأكياس الطَّحينْ،
ونسيتَ سربَ النَّحل
يعوي في سراب الذّكرياتْ،
وتركْتَ غابات الأغاني
لثعالبِ الصَّحراء ينقضّون كالأشباح
يَنْتشرون في ليل الكرومِ
يردّدون دعاءنا
ويزيّنون فطورَنا بغزالةٍ قدسيّةِ الأحزانِ
تبحثُ عن غزالٍ بابليٍّ ماتَ وهْوَ ينزُّ مِسْكَا.
الأرضُ تخرجُ ضدَّ طين الأرض هَلْكَى
والرُّوحُ ـ جاحظةَ العيونِ ـ طَوَتْ عباءَتَها
وهزّتْ نخلةً عجفاء
لا رُطَبًا ولا ولدًا لآلهةِ العواصفِ.
والخرابُ نبوءةُ العرَّافِ
والأعرابُ يزدادون إفكًا
نتنٌ يصوغُ وجودَهُمْ
مذ فضَّ ـ داودُ ـ الخيامَ
فزيَّنوا بنجومه خلخالَ جدَّتهم
وتاهَتْ في الرِّمالِ
وكلَّما عثروا عليها علَّقوا في ثديها جرسًا

لحاخامٍ يدلُّ على سلالتهم
ليتَّخذوه نُسْكا.
فاطردْهم، اللَّهمَّ، خلف سياجنا
نظِّفْ ترابَ الأرض من خطواتهم
واكسرْ قناديلاً أضاءَتْ مرّةً ظلماتهم
فلقدْ رفعنا من أصابعنا تلالاً من دموعٍ،
وانتهيْنا
في معبدٍ هرمٍ، وحُجِّرْنا لشدَّةِ ما انحنينا.

❖ ❖

نايٌ ينظِّفُ لي القصيدةَ من حثالاتِ المكانِ
ويُذيبُ روحَ الياسمين على كياني
ويضيئني بنحيبه الأبديِّ:
منذُ حلولِ «سومر» في الطّبيعةِ،
منذ جدِّ الأرضِ «تمّوز» الخصيبِ
إلى نواحِ كربلائيٍّ،
وحتّى انشطار الأبجديّهْ
والنّايُ رقصتنا بوجهِ البربريَّهْ.

❖ ❖

نايٌ لحنجرة السَّوادْ،
لرغيفِ جائعةٍ تؤجِّلُ نصفَهُ لنهارها الماضي،
لمنسيّين تحت ركام شمعتهم،
لمرفوعين كالرّايات في غبَش الحِدادْ.
نايٌ، ونايٌ للذَّبيحةِ
فوق مذبح كاهنٍ نوويّةٌ صلواتُهُ،
ويداه عامودان من لهبٍ،
وكيميائيَّةٌ زفراتُهُ.
نايٌ لفجرِ قيامةٍ ما قام.
نايٌ للعناقْ
في عرس جلجامش.
نايٌ لعشبِ خلودِهِ الطّائشْ
أنثاهُ لم تعثر على إكليلها
وثيابُها احترقَتْ بكبريت الرِفاقْ.
نايٌ لأصداءِ القصيدةِ، للخيالِ وللمجازِ
ولعبةِ المعنى المفكَّكْ.
نايٌ لعاشقةٍ تعودُ مع المساءِ بجرَّةٍ جوفاء
تبكي ثمَّ تبكي، ثم تضحكْ
وتقولُ للمصلوبِ فوق جدارِها:
«إنّي أحاولُ أن أحبَّكْ
لا وقتَ لي / لا وقت لَكْ
فارحَلْ معي كي أقتلَكْ
وأمدّ فوقي جثَّتي وأموتَ قربَكْ.»

❖ ❖

نايٌ إذًا للعائدينَ
السَّاكنين بيوتَ فكرتهمْ سُدى
صوتٌ يشتِّتُهُمْ ليجمَعَهُمْ صدى
نزلوا إلى الوديان
أو صعدوا من الوديان في رعب المدى
دفنوا ضحاياهم وهُمْ ساهون عن قَصْد الرَّدى
رَفَعوا على الأكتافِ مقبرةً، أضافوا للنَّدى
حجراً بدائيّاً... وعادوا في الصَّباح إلى
العَمَلْ.
وأنا نجوتُ
لعلَّني أختارُ موتي دونَ أن أحتاج
حَمْلَ الصَّخرة السَّوداء من أعلى الجَبَلْ.
ولعلَّني أنهارُ أكثر
عندما أختارُ
فلسفةَ الأَمَلْ.

سوريا